البلاغة العربية القديمة واللسانيات التداولية

عبد الحكيم سحالية
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف -الجزائر

الملخّص:

اعتبر العلماء المعاصرون التداولية امتدادا لمسار البحث البلاغي القديم، لأنها تحمل نفس الاهتمامات، كالخطاب ومنتجه، والبيان وآلياته، من هذا المنطلق تسعى المداخلة إلى إبراز أهم الآليات التداولية التي تتقاطع مع البلاغة في كثير من المناحي، كالسياق والتواطؤ التخاطبي والاستلزام الحواري والافتراض المسبق والأفعال الكلامية، فما هي حدود التماهي والاختلاف بين اللسانيات التداولية البلاغة العربية، وهل يمكن أن نطمح إلى إقامة نظرية تداولية عربية منبثقة من تراثنا، ومنسجمة مع الوافد اللساني المعاصر، ومراعية الخصوصية العربية.

الكلمات المفاتيح: البلاغة، العربية ، القديمة، اللسانيات، التداولية .

Résumé :

Les linguistes modernes ont considéré une nouvelle éloquence, et une extension de l'ancien chemin de recherche rhétorique, parce qu'il porte les mêmes préoccupations que le discours et son produit, la déclaration et ses mécanismes, l'intention et la compréhension, la position, le lieu communicatif et les façons dont la langue est utilisée dans la réalité sociale. Dans cette perspective, la communication, l'impact et l'impact cherchent à refléter les mécanismes délibératifs les plus importants qui recoupent la rhétorique dans de nombreux aspects, tels que le contexte et la collusion de la rhétorique et du dialogue, la préposition et les actions verbales. entre la linguistique linguistique et la rhétorique arabe? Pouvons-nous aspirer à établir une théorie délibérative arabe émanant de notre patrimoine, et en harmonie avec le linguiste contemporain et l'arabe.

Mots clés: Ancienne_ rhétorique_ arabe _et_ linguistique_ pragmatique.

Abstract:

The modern dialectical scholars considered a new eloquence, and an extension of the old rhetorical research path, because it carries the same concerns as the discourse and its product, the statement and its mechanisms, the intention and the understanding, the position, the communicative place, and the ways in which the language is used in social reality.

Communication, and impact and impact, from this perspective seeks to reflect the most important deliberative mechanisms that intersect with rhetoric in many aspects, such as context and collusion of rhetoric and dialogue and the preposition and verbal actions, what is the limit What is the difference between linguistic linguistics and Arab rhetoric? Can we aspire to establish an Arab deliberative theory emanating from our heritage, and in harmony with the contemporary linguist and Arab.

Key words : Old_ Arabic_ rhetoric_ and_ linguistic_ pragmatic.

مقدمـــــــة

التداولية امتداد للبلاغة القديمة، بل تعتبر حاملة محتوى تداوليا لاهتمامها بالباث والمستقبل والسياق والمقام، وتعود ملامح التداولية في الفكر العربي إلى كوكبة من العلماء كسيبويه، الجاحظ، ابن جني، أبي هلال العسكري، ابن سنان الخفاجي، عبد القاهر الجرجاني، حازم القرطاجني، وغيرهم، لكن الفارق أن البلاغة العربية قديما تحمل الطابع المعياري، فلأي مدى تشترك البلاغة العربية القديمة مع التداولية، وماهي أوجه الاختلاف والاتحاد بينهما، وما هي الشروط التي تجعل الخطاب ناجحا، من هنا قسمنا بحثنا إلى مبحثين: _ الأول ملامح التداولية عند العرب قديما، وتناولنا فيه ما جاء به علماء العرب القدامى من وجهات نظر حول البلاغة وتقاطعها مع التداولية والثاني: التداولية وتناولنا مفاهيمها عند المحدثين، ثم وصلنا إلى نتائج أهمها تقاطع البلاغة العربية القديمة والتداولية، مما يجعلنا نقترح إلى إقامة نظرية تداولية عربية منبثقة من التراث العربي، ومستفيدة من الوافد اللساني الغربي .

أولا: ملامح التداولية عند العرب قديما

1- ملامح التداولية في فكر سيبويه

لم يكن كتاب سيبويه كتابا خالصا في النحو بل اشتمل على كثير من العلوم اللغوية، ففيه تحليل للخطاب العربي تأسيس لقواعد كلام العرب، وفيه تناول موضوع القراءات، والتجويد، والأصوات، والنحو والبلاغة. ولقد درس سيبويه مفاهيم تخص دلالات الكلام مراعيا المقام، والسياق الذي يقال فيه هذا الكلام، ولقد تحدث عن مفهوم الكلام بطريقة تقترب مما قال به المعاصرون عن الخطاب الذي يستوجب مراعاة حال المستمعين واختيار اللفظ المناسب، وقنوات الاتصال والتواصل، وكل ما من شأنه أن يساعد في عملية التخاطب، وقد مثل لنا سيبويه ذلك في باب ما يختار فيه الرفع وجائز فيه النصب[1]، ونرى من هذين النمطين أن سيبويه حين يتحدث عن جواز النصب والرفع في تمثيله: "له علم علم الفقهاء" برفع العين ونصبها من اللفظة الثانية، هو خطاب مقبول في النظام اللغوي للعربية، لأنه يشير في ذلك إلى ارتباط التراكيب بالسياق الكلامي والموقف الذي يقال فيه، فالكتاب هو كتاب في النحو والبلاغة، "لأن النحو كان دراسة لنظم الكلام، وكشفا عن أسرار تأليف التراكيب، وبيانا لما يعرض له من ظروف، وتوصل إلى ربط المعنى بالسياق"[2]، وقد يظهر هذا المعنى بوضوح في باب حسن الاستقامة من الكلام والإحالة، لأن الاستقامة أن يكون التركيب خاضعا لما أجرته العرب في كلامها فيقسم الكلام إلى: **مستقيم حسن: أتيتك أمس.- المحال: أتيتك غدا. - المستقيم الكذب: حملت الجبال.- المستقيم القبيح: قد زيدا رأيت. - المحال الكذب: سوف أشرب ماء البحر**[3]، إن ما نلاحظه على هذا التقسيم أن الاستقامة تكون في أن يكون الكلام قائما على أساس التأليف والتركيب وبناء المعنى، وصدق ما ورد فيه، ولقد استخدم سيبويه مصطلح الجملة أوسع

من الجملة ذاتها، وقاطع مصطلح الكلام الذي يقترب بمفهوم الخطاب، كما نستنتج أن سيبويه يريد ضم مفهوم الكلام بضم بعض الكلمات بطريقة خاصة وصولا إلى المعاني النحوية، مع مراعاة السياق الكلامي دون الفصل بين المعاني النحوية والبلاغية، فهو إذن لا يعتني بالنحو فحسب أو يعزله، أو يجعله مستقلا عن الظاهرة الاجتماعية وأغراض المتكلم، ومقام السامع والوسائل الموصلة للكلام، بل يجعل كل ذلك كلاّ متكاملا متناسقا، مازجا بين الباث والمتلقي، من خلال القناة، والفهم، والسياق.

2 – ملامح التداولية في فكر الجاحظ:

ذهب "محمد العمري" في كتابه "البلاغة العربية" إلى أن التداولية بعد "جاحظي" في أصله لاهتمام الجاحظ وتركيزه على هذا المستوى في كتابه "البيان والتبيين" وعلى عملية التأثير في المتلقي، والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عنده، والتي تعرف اليوم بـــ"التداولية" بـــ نظرية "التأثير والمقام وتتجلى جذور التداولية عند "الجاحظ" من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية، التي تمثل جانباً مهماً في التداوليات الحديثة، يقول الجاحظ: "أما بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان، اعتماداً على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية هي: [4]

1- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية.

2- الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة.

3- الوظيفة الحجاجية: (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج.

3- ملامح التداولية في فكر ابن جني:

ترتبط البلاغة في فكر ابن جني بالخطاب وبالقناة المؤدية له، وهي اللغة التي عرفها ابن جني (ت 392 هـ) على أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[5]، فنجد في هذا التعريف أربعة عناصر أساسة ترتبط بأغراض الخطاب وأقسامه كما وردت عناصره الأربعة في هذا التوزيع: – طبيعة اللغة حيث إنها أصوات – وظيفتها فهي تعبير– اجتماعية ومرتبطة بالجماعة اللغوية – علاقة نفسية بين الفكر واللغة[6]. والملاحظ أن ابن جني قد قارب التداولية من خلال توضيحه لعلاقة اللفظ بالمعنى، وعلاقة اللفظ باللفظ، وعلاقة الحروف ببعضها، وأفرد لها أبوابا، في كتابة الخصائص وقد قدم جهدا بالغا في كيفية عناية النحاة بأساليب الكلام، وقد تحدث على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، حيث أكد أن العرب تعتني بنظم ألفاظها وترتيبها، لأن ذلك هو طريقها لإظهار أغراضها، ومعانيها، وما الألفاظ إلا خدما للمعاني[7] حتى يوصل المرسل خطابا مفهوما، وكما أراده في نفسه. ويؤكد ابن جني على هذه المسألة بقوله أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته وعرفت منه وبه ما يؤنقك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب، وذلك أن العرب كما تعني بألفاظها فتصلحها وتهذبها، وتراعيها وتلحظ أحكامها بالشعر تارة، والخطب تارة أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخر قدرا في نفوسها[8]، فما هذه العناية بالألفاظ إلا ليكون الخطاب أقرب فهما وأكثر بيانا، فهي عناية مقصودة، ولم تكن اعتباطية، وإنما حتى تبين أغراض أصحابها وتوضح خطابهم وتوصل مراميهم وأهدافهم من الخطاب.

ويرى ابن جني في باب شجاعة العربية أن النظم وفق أساليب العرب يؤدي إلى خطاب مفهوم، ويرى أيضا أن اللغة العربية تقوم بالتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحمل على المعنى، وذكر أن العرب قد تلج إلى إفساد الإعراب من أجل المعنى وصحته، فابن جني يربط بين الإعراب والمعاني الوظيفية لأجزاء السياق الكلامي، ونفهم من خلال ما سبق أن الإعراب في خدمة الخطاب، والفهم والتواصل، وما وظيفته إلا الإبانة عن مكنون كلام العرب "إن الذي يرفع، وينصب ويخفض، ويجزم هو المتكلم نفسه، إذ يبين عن المعاني التي يريدها بالألفاظ"[9]، فالإعراب إذن هو وسيلة من الوسائل التي يستخدمها المرسل لإيصال خطابه واضحا للمتلقين.

4- ملامح التداولية في فكر أبي هلال العسكري:

اهتم أبو هلال العسكري بمقاصد المتكلم وأحواله بكيفية تلقي السامع للخطاب ومراعاة أحواله و بالمقام وبالفائدة والتأثير في المتلقين وإقناعهم فسلط الضوء على المرسل والمرسل إليه والمقام والقصد ومراعاة مقتضى الحال والموقف والإقناع والفائدة والتداول "إن مراعاة مقتضى الحال في التعبير الأدبي أمر ضروري لتبيين مقاصد المتكلم والمخاطب معا في سياق معين"[10].

5- ملامح التداولية في فكر ابن سنان الخفاجي:

يشير "ابن سنان الخفاجي" ضمنياً إلى التداولية الحديثة، في خضم كلامه عن الفائدة التي نرجوها من الكلام، فهو يشترط في الكلام الصحيح الانتظام والفائدة، وإلا فلا يمكن عدّه كلاماً. إلا إذا حقق الفائدة المرجوة منه، أي أن الكلام عنده لـــه وظيفة براغماتية نفعية ، إضافة إلى هذا، تحدث عن المواضعة والقصد واستعمال المتكلم له، أي استعمال اللغة في قصد، وقد

جعل الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل والاتصال والتأثير وهذا هو صلب النظرية التداولية " اللغة عبارة عما تواضع عليه القوم من كلام "[11].

6- ملامح التداولية في فكر عبد القاهر الجرجاني:

نظر الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) إلى النحو نظرة شاملة، فجعل العامل مرتبطا بالمعمول، ونظر إلى الكلام على أنه كلّ لا يتجزأ بل وظف النحو لخدمة العملية التواصلية وأكد على أن السياق الكلامي لا يتأتى إلا من خلال معرفة علامات الإعراب في التراكيب، وما هي إلا عوامل ليكون خطاب الباث مفهوما لدى المتلقين، حيث يقول في هذا الصدد: "واعلم أن ما ترى أنه لابد من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواضيعها"[12]، ولقد انتقى الجرجاني معنى النحو وأعطاه الخاصية التواصلية، وفي هذا المعنى يؤكد عبد السلام المسدي على النهج الذي سلكه الجرجاني في تحديد الطاقة الاستيعابية للنحو ووضعه في المرتبة الأولى لا لشيء إلا لأنه يعبر عن مقاصد المتكلم، وأغراض الناطق، والعملية التواصلية الخطابية، أما عن الحدث الكلامي فإن الجرجاني ركز على وجوب علم المخاطب بمحتوى الخطاب حتى تكون الفائدة، ويصل الفهم إلى المتلقي بسرعة وسهولة، واستنباط قانون من التناسب بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة[13]، هذا ما يتوافق مع طاقة الخطاب، إذ يتجاوب كل من الباث والمتلقي كي تتم عملية التواصل بنجاح، ويستطيع الخطاب أن يمر من ذهن المخاطب إلى فكر السامع، وتكون بذلك العملية الخطابية ناجحة كل النجاح، ويؤكد الجرجاني كل ذلك من خلال شرحه

للطاقة التي يتضمنها الخطاب والتي يكون على إثرها قابلا للامتداد أو التقلص فيقول: "لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعاني الألفاظ التي يسمعها مستطلعا أو يكون جاهلا بذلك، فإن كان عالما لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى اللفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، وإن كان جاهلا كان ذلك في وصفه أبعد"[14].

إن بنية الخطاب عند الجرجاني هي التي تساعد على فهم محتوى الخطاب من خلال النظم، والتركيب المحكم للألفاظ التي تكون خادمة للمعاني، فحسن التأليف وتوخي المعاني النحوية وأحكام النحو هي التي تجعل الفهم أسهل، وأكثر نفوذا، وعملية التواصل دائمة ومستمرة، حيث يقول الجرجاني في هذا السياق: "إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلوى وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه"[15] ،وفي تحديده للوظيفة الإبلاغية نجد الجرجاني كذلك عنى بالعلاقة الإسنادية فدلالة الخطاب أثناء العملية التواصلية راجعة إلى عامل خارج عن اللغة، هو قصد المتكلم أو الباث من إعلام السامع بخطابه، فالحمولة الدلالية للخطاب تتوقف على قصد المتكلم، ويقول الجرجاني محددا أهمية إسناد الخبر إلى المخبر/الباث، الدلالة على شيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه شيئا تعرف ما يدل عليه، وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببداهة المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو؟ أهو أن يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه، أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟[16].

ونخلص إلى القول بأن الجرجاني يركز على منطقية اللغة وفق منظور نحوي، ويقيم دلالة الخطاب اللغوي على قاعدة الإسناد التي تجعلنا ننظر إلى ثلاثة أطراف أساسة في عملية الإبلاغ وتوصيل الخطاب وهي: المسند وهو محتوى الخطاب الإبلاغي، وهو الشيء الجديد بالنسبة للسامع، والمسند إليه أو المخبر عنه وهو إحداث فائدة الكلام، وثالث الأمور، ناقل الإسناد أو المخبر أو الباث وهو الذي يقوم بتركيب الكلام في نفسه ثم يبثه إلى متلقين، وعن هذا الأخير يقول الجرجاني: "فإنّ الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والواضع له، والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع"[17]. ومما يكشف في هذه التوجيهات اللغوية أن عبد القاهر الجرجاني انطلق من أساس اللغة وهو النحو المنسجم مع مقصد التأليف الكلامي الذي يراعي عنده الدلالة والسياق الكلامي، وأقامه على النظم وعلى المعاني، ويعني ذلك أن فهم عبارة ما لا يكون إلا بفهم أبعادها الدلالية وموقفها الاتصالي الذي تتم فيه عبر الأصوات اللغوية، حيث ترتبط المكوّنات الخطابية أو ما يعرف باسم الأداء الكلامي لتؤلف خطابا مفهوما لدى المتلقين، فمدار المتلقين إذن هو أساس التفاعل بين التراكيب، ولعل هذا ما جعل عبد القاهر الجرجاني يرفض فصاحة اللفظ المفرد إذ لم تكن في مجموعة كلامية "واعلم أن هاهنا أصلا أنت ترى الناس في صورة من يعرف من جانب وينكر من جانب آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنّا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعريفها حتى كأنهم لو لم

يكونوا قالوا: رجل، فرس، ودار، لما كان يكون لنا علم بمعانيها"[18]، فالألفاظ ما وضعت من أجل أن تطلق التسميات على الأشياء فقط، بل من أجل أداء وظيفة التواصل والإبلاغ أثناء تضام الكلمات

7-ملامح التداولية في فكر حازم القرطاجني:

تتجلى ملامح التداولية في العملية التواصلية ، فنراه يتحدث عن الكلام الذي يعتبره الوسيلة الأولى والأساسة للتواصل، من خلال إبرازه للقصد والفائدة من الكلام، والتأثير والتأثر، وعناصر العملية الاتصالية التواصلية من مرسل ومرسل إليه والوضوح والفهم والإفهام حيث يقول في هذا الصدد: "لما كان الكلام أولى بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتيج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب أو الاستفادة منه"[19].

ثانيا: التـــــداوليـــة:

وردت مادة "دول" في عدة معاجم لغوية من بينها لسان العرب، والقاموس المحيط، وهي آتية من دول يتداول، تداولا، ويقال تداولنا الأمر: أخذناه بالدّول، وقالوا دواليك: أي مداولة على الأمر، و تداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة ، وتداولنا العمل بيننا بمعنى تعاوناه، فعمل هذا مرة وهذا مرة[20]، فمعنى داول هو الأخذ مرة بمرة، وتارة بتارة، والتبادل، "وداول كذا بينهم، جعله متداولا تارة لهؤلاء، وتارة لهؤلاء، ويقال داول الله الأيام بين الناس، أدارها وصرفها"[21]، وجاء في قوله تعالى: **((وتلك الأيام نداولها بين الناس))**[22]، فسرها ابن كثير بأن الألم والفرح، تارة عليكم فيكون الأعداء غالبين، وتارة تكون لكم الغلبة، ولكن النصر الأخير سيكون للمؤمنين حيث

يقول "أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة"[23]، وأكد هذا الفهم السعدي بقوله " ومن الحكم في ذلك من هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم لطائفة أخرى"[24]، ومما وضح من هذه اللفظة أنها تعني التداول والأخذ مرة بمرة. والتداوليات مصطلح مركب من مورفيمين، الأول، التداول من الفعل تداول، وهي من صيغة تفاعل والتي تحمل معنى المشاركة، والثاني اللاحقة "يات" والتي تشير إلى البعد المنهجي والعلمي، التداولية علم يتصل بالظاهرة اللسانية، ومن هذه الزاوية المعرفية، فهو علم حديث، غير أن البحث فيه قديم، إذ تشير المصادر إلى أن كلمة تداولية يقابلها مصطلح (pragmaticus) اليونانية، التي تعني الغرض العلمي حيث استخدمها فلاسفة اليونان منذ العهود الأولى للدلالة على العلمية [25]، وانتقل هذا الدال إلى اللاتينية بما يقارب شكلا المصطلح اليوناني، فلفظة (pragmaticus)اللاتينية هي امتداد لذلك الاصطلاح العلمي و ترجم مصطلح التداولية إلى العربية بعدة ألفاظ، وذلك نظرا " لتداخل حقولها بحقول أخرى مجاورة لها، فإن لها كثيرا من الترجمات في العربية منها: التبادلية، الاتصالية، والنفعية، والذرائعية"[26]، ولقد اهتم الدارسون بآثار تفاعل اللغة مع الظروف والمقامات في المجتمع، وكيفيات استعمالها داخل النظام الاجتماعي، حيث يحدث التفاعل بين المرسل والمتلقي، فهي إذن تعتني " بالكيفية التي تتحقق بها اللغة عند الاستعمال وعند التخاطب، وتندرج هذه القضايا كلها في إطار تيار من الدراسات والنظريات تسمى عند أهل الاختصاص بـــ: التداولية وتعددت تعاريف التداولية فربطت كذلك بالفائدة التي تحدثها فهي تعبر عن نظرية تهتم بالفائدة العلمية لفكرة كمعيار صدقها[27]، وهي تهتم بمقاصد المتكلم والبحث في أغوار معاني الكلام

والمتكلم، ومحاولة اكتشاف الأغراض التي يريدها المرسل من خلال رسالته، فقد تتعدى الدلالة المعنى الحرفي إلى المعنى المستتر فهي "فرع من علم اللغة بحث كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو دراسة معنى المتكلم، فقول القائل "أنا عطشان تعني: "أحضر لي كوبا من الماء وليس من اللازم أن يكون إخبارا له بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته"[28]. أنشأ غرايس مبادئ عامة تؤسس لمقاصد المخاطبين والمشاركين في عملية التخاطب وهي بمثابة العقد والاتفاق الضمني بين المخاطِب والمخاطَب المشاركين في عملية التخاطب، فكلاهما يسعى إلى جعل شبكة الاتصال دائمة ومتواصلة، وفي سيرورة منتظمة ومترابطة وتتبني هذه المبادئ على أربع حكم أساسية[29] هي:

- **حكمة الكمّ:** تجعل مساهمتك في الحديث إخبارية بالقدر الذي يقتضيه.
- **حكمة الكيف:** أن تقدم مساهمة حقيقية _ **حكمة العلاقة:** أن تقدم مساهمة دالة.

- **حكمة حكم الكلام:** أن يتكلم بوضوح ويتجنب الإبهام وأن تقدم الحجة، فالتداولية تعني بالكيفية التي تستعمل بها اللغة عند الحديث، وتهتم بالسياق الكلامي والموقف، وتعنى بالمتكلمين وطرائق حديثهم، وبكل ما من شأنه أن يزيد عملية الاتصال وضوحا، حيث يعرفها **إيلوار** بأنها مجال يهتم بمعالجة ثلاثة معطيات توجه عملية التبادل الكلامي وهي:أ / المتكلمون ب/ السياق ج/ الاستعمالات العادية للكلام[30] تعنى التداولية بالاستعمال العادي للغة من خلال العناصر الثلاثة فتهتم بالمتكلم والسامع مشاركا في فعل الكلام والحدث التواصلي، وتهتم بظروف الكلام، ومقام الحال، وكل ما له صلة بالكلام من عوامل خارجية، أو تناسب حال من الأحوال ، أو تنافره للحدث الكلامي

وتهتم بالسياقات اللغوية للمتكلمين حسب الواقع اللغوي، فتبحث في الكيفية الخطابية" وتستنتج مقاصد المخاطب، فهي "دراسة اللغة في الاستعمال"[31] وللسياق دوره البارز والمهم في التداولية فبتغيره يمكن أن يتغير القول والمفهوم ،ويكون بذلك موافقا للسياق الجديد، فلكل سياق قول، وهذه الأقوال متوقفة على العوامل الخاصة بالمتكلمين والعوامل الخارجة عنهم، فالسياق هو "مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين، يستمد وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه أو مستمعيه ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما"[32] ، وتدرس العلاقات التي تنشأ بين اللغة والسياق، والمتكلم والسامع، والظروف الزمنية والمكانية، وتراعي بذلك مقاصد المتكلم وظروفه، وكيفية وصول الكلام إلى السامعين وظروفهم المحيطة بهم، إنها كل متداخل، فهي إذن تهتم "بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة وتأثير هذا الاختيار في الآخرين"[33]، لأن لكل لفظة دلالة خاصة، فحينما نستعمل لفظة دون أخرى، نحملها دلالة دون غيرها ونعلم أنها قادرة على إيصال مقاصدنا التي نريدها إلى مستمعينا، فالاختيار لم يكن بطريقة اعتباطية، ولكن هناك أسباب تدفعنا للتلفظ بهذه الجملة بصيغتها التي قلناها دون أن نتلفظ بجملة غيرها وعرفها شارلز موريس وميز بين ثلاثة اختصاصات تعالج اللغة وهي[34]: علم التركيب: ويعنى بدراسة العلاقات الشكلية بعضها ببعض علم الدلالـــة: ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها أو تحيل إليها، التـــداوليـــة: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها، وتدرس كل ما له علاقة باللغة، سواء أكان يعنى بشكل الخطاب من لغة أو إيماء أم بدلائلها أم بالدلالة وعلاقتها بالأشياء والحسيات الخارجية أم بالعلامات والإشارات، واستنتاجات الكلام أم بالفهم الضمني دون الحديث، لتتم عملية التبليغ على

أحسن وجه، ولأن عملية التبليغ لها عدة فروع وعدة أشكال، فإن صلاح فضل قد عرّف التداولية على أنها "الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بوجه عام"[35]، إنها ميدان من ميادين اللسانيات يدرس كيفية فهم الناس وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد، وقد عرّفها فانديك بأنها تساهم بشكل فعال في التفاعل الاجتماعي، والتواصل حيث يقول" التداولية بوصفها علما ي بتحليل الأفعال اللغوية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عملية الاتصال بوجه عام، انطلاقا من كون المنطوقات اللغوية تهدف إلى الإسهام في الاتصال، والتفاعل الاجتماعي"[36]، ففانديك يعد التداولية ذلك العلم الذي يبحث في المنطوقات الهادفة إلى إقامة تفاعل اجتماعي، ولقد قدم العديد من الباحثين تعريفات كثيرة للتداولية منها "التداولية هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل الشاذة تداوليا أو تعد في الكلام المحال، وعلى الرغم من أن إيضاح الشذوذ في هذه الجمل قد يكون سبيلا جيدا للوصول إلى نوع من الأسس التي تقوم عليها التداولية فهو لا يعد تعريفا شاملا لكل مجالاتها"[37] فقد تعرفنا التداولية على الكلام الذي لا يتماشى والاستعمالات اليومية أو الواقعية، وهي التي ندرس من خلالها الأسس المبرزة لكيفية استعمال اللغة داخل المجتمع شاذها وعاديها، "هو نوع من التعريف يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوي بالإحالة إلى أسباب غير لغوية "[38]، لكن هذا التعريف يجعلنا نخلط بين عدة مجالات للدراسة وعدة فروع علمية أخرى كعلم الاجتماع اللغوي وعلم اللغة النفسي، فهذا تعريف قاصر ناقص لا يبرز ولا يبدي كل حقائق التداولية، ولعل هذه الصعوبة القائمة في تحديد تعريف جامع مانع يكمن في تشعبها لعدة حقول ومجالات ، وقد تتشابك وتتقاطع مع علم الدلالة في دراستها للمعنى فهي كما

عرفها بعض الباحثين "دراسة كل جوانب المعنى التي تهملها النظريات الدلالية، فإذا اقتصر علم الدلالة على دراسة الأقوال التي تنطبق عليها شروط الصدق، فإن التداولية تعنى بما وراء ذلك مما لا تنطبق عليه هذه الشروط "[39]، فالتداولية تتجاوز علم الدلالة إلى كل العلامات اللغوية وغير اللغوية، بل تتجاوب مع تفاعل السامع والمتكلم وتواطئهما لحدوث عملية الاتصال بكل نجاح، لذلك فقد عرّفها بعضهم على أنها " دراسة جوانب السياق التي تشفر شكليا في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل[40]، فهي تبحث في السياق وفي كل الظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية والزمنية والمكانية التي يمكن أن تساعد المستمع، وتحرك كفاءته ومقدرته للوصول إلى معاني المتكلم ومقاصده وأغراض كلامه، ونظرا لارتباط التداولية بعدة ميادين ومجالات فإننا نرى أوستين يهتم بالتعامل اللغوي داخل المؤسسة الاجتماعية، ويرى أنها اتجاه تتلاقى فيه على وجه معين ميادين من المعرفة المختلفة، أهمها علم اللغة الخالص والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة، وكذلك علم الاجتماع وغيرها من العلوم[41]،فالتداولية بحسب رأي أوستن حقل شامل لمجموعة من العلوم والمعارف تتضافر كل هذه المعارف لتوصل المعنى، فهدفها هو الاتصال والتبليغ وما كل تلك الحقول إلا وسيلة تنجح العملية الاتصالية التواصلية، ولعل التداولية بهذا المفهوم تنقلنا إلى المفهوم الذي أشار إليه محمد صلاح الدين الشريف والمستوحي من مفهوم بيرس المرتكز على المنطق حيث يقول: " تقوم البراغماتية على تصنيفها داخل نظام عام وله جذوره في مشروع (بيرس) الهادف إلى وضع علامية ودلائلية (سيميوطيقا) تكون نظرية منطقية عامة"[42]، فمفهومها ينطلق من أنها طريقة في التفكير تبحث عن معنى الإشارات والعلامات وكل روابط الاتصال اللغوية وغير اللغوية، مستندة في ذلك على المنطق وإعمال العقل، وربط

الدال بالمدلول، فهي تنقل الواقع، وتكون وسيلة من وسائل الاتصال، وهي تهدف إلى إرساء قواعد عامة للفعل وعلاقته بالمحيط والواقع، وربطه بالفكر لهدف التواصل والاتصال والتبليغ، ولعل من بين من انتهج هذا التعريف وتبناه وتأثر به الباحث امبرتو ايكو والذي ساهم في إثراء نظريات القراءة والأدب من خلال مفهومه للتداولية البيرسية والمرتكزة على القصد والإبلاغ والاتصال، حيث أنه يؤمن بالنص المفتوح، بالنص الذي يحمل دلالات لا متناهية، فالنص الخالد عند امبرتوايكو هو النص الذي يحقق أكبر نسبة تواصلية في كل زمان ومكان، ويحدث تجاوبا لدى القراء عبر العصور وكل الأمكنة ولن يحدث كل ذلك إلا من خلال استخدام لغة تداولية تسهل الفهم وتقرب مساحة النص من القارئ، ولامبرتو ايكو موقف من التأويل القراءات المتعددة "وموقفه نابع من محاولته التوفيقية بين دلائلية (بيرس) والنظرية السيميائية ذات الأصل السويسري ونظريات تحليل الخطاب"[43]، ولقد وجه امبرتو ايكو اهتمامه للقارئ واستجابته مع النص حتى تكون العملية الاتصالية التواصلية ناجحة، وجعل اللغة جانبا من جوانب التحليل، وليست هي الجانب الوحيد، فقد اعتمد على أمور خارجة عن اللغة كالسياق والقارئ والناقل من خلال جوانب متعددة خارجة عن اللغة ذاتها وتجاوز بذلك مقولة دراسة اللغة بذاتها ولأجل ذاتها السويسرية، وجعل الدراسة قابلة لكل ما من شأنه أن يخدم العملية التواصلية لغوية كانت أم دلائلية،علامية، ليصبح عنده كل شيء قابلا للتأويل ويكون بذلك الخطاب منفتحا على كل الجوانب، ونظرا لهذا التشعب والتفرع لمفهوم التداولية فقد أدلى الباحث أساكاشير بقوله فيها، وقدم مفهوما لها مرتبطا بقصد التواصل، فهو يدرس الكيفيات المتعددة لاستعمال اللغة المفضية لإنجاح العملية التواصلية فقد عرفها على أنها "وسيلة لتحديد اللغة بطريقة نفهم منها جيدا ما هو أساسي في اللغة"[44]، فمهمة

التداولية عنده تبحث في كل الكيفيات المنتجة للقول والملفوظ من خلال المواقف، وحالات التواصل والسياق، فالمخاطب هو الذي يسعى إلى فك مقاصد المتكلم من خلال أفعاله الكلامية حتى يصل المستمع إلى تواصل تام ، وأما إذا انتقلنا إلى تشالرز موريس فإننا نراه يتحدث عن ثلاث مستويات من الدراسة، تكوّن اللسانيات التداولية، وهي الدراسة التركيبية والدلالية والتداولية وهي دراسة متداخلة تداخلا شديدا حيث يقول " تفترض اللسانيات التداولية مسبقا كلا من الدراسة التركيبية والدلالية، لأن المناقشة الحصيفة السديدة لعلاقات الأدلة بمؤوليها تستلزم معرفة علاقات الأدلة بعضها ببعض، كذا علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤلفون"[45]، فتصور موريس للتداولية ينطلق من الأدلة الحاملة لمجموعة التراكيب اللغوية، وعلى المدلولات وهي موجودات الواقع لينتقل إلى المؤولين وكيفيات فهم السامع لخطاب المتكلم، "فقد ميز (موريس) في كتابه أسس نظرية الرموز سنة 1938 بين عناصر ثلاثة تدخل في تحديد الرمزية، الرمز من حيث هو علامة، الرمز من حيث هو دلالة، الرمز من حيث هو محل للتأويل من لذة المستمع.. [46]، وإذا انتقلنا إلى فكر الباحث كارل بوهلر فإننا نجده يحاول أن ينقل البحث من اللسانيات الجامدة إلى اللسانيات الحيوية "إن بوهلر يكافح إذن من أجل لسانيات ديناميكية غير سكونية من لسانيات النشاط اللغوي، حيث تنصرف مهمة اللساني إلى دراسة الاستعمال البشري الخاص للدليل"[47]، فبوهلر يحاول أن ينقل اللسانيات إلى مستوى التبليغ والتواصل، واقترح الصيغة التداولية، فأراد أن يكشف عن أغراض المتكلمين من خلال كيفيات استعمالهم للأدلة والرموز حتى يؤثروا على المرسل إليه، وقد وضع بوهلر أربع وظائف تتزامن والنشاط اللغوي فتدعمه، وتحاول إيصال المرسل بالمرسل إليه، وتحقق العملية الإبلاغية هذه الوظائف هي:[48] وظيفة التمثيل

وظيفة التعبير وظيفة النداء والوظيفة المزدوجة: التعبير والنداء، أما الباحث هابر ماز فإنه يقدم تعريفا للتداولية من خلال الكفاءة التواصلية، فكما أن لكل فرد كفاءة لغوية فإنه يملك هذه الكفاءة الاتصالية التي تجعله يتلفظ بكلمات معينة في سياق معين تؤدي دلالة تواصلية، فقد يتلفظ عكس ما يريد ويفهمه السامع، ويتوصل إلى المعاني التي أرادها من خلال كفاءته التواصلية، لأننا نعني أكثر مما نقول، فالكفاءة التواصلية عنده " لها نواه عالمية كذلك كما هو الأمر بالنسبة للكفاءة اللسانية، إذ تصف النظرية العامة للفعل الخطابي النظام الأساسي للقواعد التي يلم بها الفاعلون، والمتكلمون، والتي تسمح لهم باستيفاء الشروط لاستعمال خاص للجمل"[49]، فالمرسل يحتاج إلى شروط التبليغ ليحقق أفعاله الكلامية، وكان من بين المعرفين لها الأستاذ مسعود صحراوي الذي جعلها علما متداخل الجوانب متشعب الأفاق يدرس الظواهر اللغوية وسياقها في مجال الاستعمال حيث عرفّها بقوله:" ليست علما لغويا محضا علما يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية، ويقف عند حدودها وأشكالها، بل هي علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال وتتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي ومن هنا تكون جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي"[50]،جعلها علما يدرس كل الجوانب المساعدة على التواصل اللغوي فهي لا تقف عند حدود الشكل اللغوي ولا العلامات والإشارات بل تستثمر كل ذلك وتتجاوزه بهدف الوصول إلى التواصل الإنساني.

الخاتمة:

يمكن أن نستخلص أن البلاغة العربية القديمة والتداولية يشتركان في عديد من العناصر، ويتداخلان في كثير من القضايا أهمها: السياق والمقام،

المرسل والمتلقي، والرسالة، وعملية التأثير والتأثر، والإقناع والقصد، ولا يكفي أن نبرز التقاطع والتشابه، بل وجب علينا أن نتساءل عن سبل الوصول إلى تداولية عربية منبثقة من التراث العربي، ومستفيدة من الوافد المعاصر، ومنه نقترح جملة من التوصيات تتمثل في :

1_ الرجوع إلى تراثنا البلاغي وقراءته قراءة معاصرة.

2_حمل التراث العربي البلاغي مقومات تتقاطع مع التداولية المعاصرة وجب إبرازها.

3_ التداولية مقاربة لسانية معاصرة علينا التعرف عليها والاستفادة منها.

4_استثمار الوافد الغربي بما يتماشى واللغة العربية .

الهوامش:

1- سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3 القاهرة، 1988، ج1، ص69.

2- صالح بلعيد: التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر 1994، ص 72.

3- سيبويه: المصدر السابق، ج 1، ص 25 – 26.

4- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها 999،إفريقيا الشرق، المغرب، ص7.

5- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج1، ص 33 .

6- محمد داوود: العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب، القاهرة 2001، ص49 وما بعدها.

7- ابن جني: المصدر السابق، ج 1، ص 215.
8- المصدر نفسه، ص 215 – 216.
9- المصدر نفسه، ج 2، ص 84.
10- أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان،1989, ص151.
11- ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية، لبنان، 1972ص 48.
12- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد عبدو، دار المعرفة، ط3، بيروت. 2001، ص53.
13 –عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، ص67.
14- عبد القاهر الجرجاني: المصدر السابق، ص 180.
15- المصدر نفسه، ص 183.
16- المصدر نفسه، ص 339.
17- المصدر نفسه، ص 201.
18- المصدر نفسه، ص 345.
19- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ص216.
20- ابن منظور لسان العرب، لسان العرب، ، طبعة دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1982، ج11، ص252، 253، مادة "دول" ، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ضبط يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان،2003 ،ص 900 .
21- معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، 1989، ط2،اسطنبول، تركيا، ج1، ص304.
22- سورة آل عمران، الآية 140.
23- تفسير القرآن العظيم، ج3، ص542.
24- تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ص150.

25- حامد خليل، المنطق البراغماتي عند بيرس، مؤسس الحركة البراغماتية، دار الينابيع مصر، 1996، ص196.
26- ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2000، ص102.
27- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، ط1، الجزائر، 2000، ص158.
28- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، مصر، 2000، ص165.
29- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ط1، مصر، 2002 ، ص13.
30- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص33.
31- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص185.
32- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.
33- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص41.
34- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات ، ص185.
35- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص9.
36- م.ن، ص11.
37- م.ن، ص ن.
38- م.ن، ص ن
39- عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، ط2، تونس، 1990، ص95.
40- م.ن، 99.
41- محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، 1990، ص118.
42- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء ، بيروت، ص49.
43- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص11.

44- طه عبد الرحمان: تكامل المعارف، اللسانيات والمنطق، مجلة دراسات سيميائية أدبية، العدد الثاني، المغرب،(87،88)، ص120.
45- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية،ص14، 15.
46- م.ن، ص،14.
47- فرانسواز أرمينكو،المقاربة التداولية ،ص80.
48- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.
49- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية،ص14.
50- مسعود صحراوي "التداولية عند العلماء العرب" دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005 ، ص22.
51- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص14.